السفياني

للاستاذ بشرلي عبودي
طلبة باكو

من يطالع كتب الانبياء يامعان يرى ان اليأس استولى عليهم او كاد في بادىء الامر اي على اثر سقوط دولتهم فأظلمت الدنيا في اعينهم وأخذوا يندبون امتهم بعبارات لا مثيل لها في آداب سائر الامم (راجع مراثي ارميا) ولم يعودوا ينتظرون من شدة ما اصابهم مساعدة من احد « لان جميع اخلاء اورشليم غدروا بها وصاروا لها اعداء » (مراثي ارميا ب) ولما لم يبقَ لهم امل في الخلاص القريب اضطروا ان يعلقوه على المستقبل البعيد حين يبعث الله « الفادي » ثم اخذوا يصوّرون هذا المستقبل المتحجب وراء الغيوم بما كانت توحيه اليهم مخيلاتهم المنهجة المريضة وعواطفهم القومية المهانة ورغبتهم القوية في الانتقام من الصور الساحرة الخلابة التي هي اقرب الى الهذيان وأصنغاث الاحلام منها الى الممكنات المعقولة ولكن سرعان ما تحوّلت هذه الاحلام البعيدة الى آمال قوية في قرب « الخلاص » يوم غلب كورش ملك الفرس البابليين وضم بلادهم الى مملكته ثم اخذ يظهر من العطف على بني اسرائيل والرغبة في استمالتهم اليه لاعتبارات سياسية واقتصادية ما جعلهم ينظرون اليه نظرهم الى مسيحهم المنتظر [1] ليحررهم ويردهم الى بلادهم ويقيم العدل بينهم [2] وقد كان ذلك كما هو معلوم ولكن الى حين حتى اذا فقدوا استقلالهم مرة اخرى في ايام ذي القرنين وخلفائه ثم في عهد الرومانيين والبزنطيين عادوا الى احلامهم القديمة وآمالهم التي لم تتحقق وكذلك ظلوا يتقلبون بين اليأس والامل والشدة والفرج وينتظرون خلاصهم القومي [3] حتى قضي امرهم فتشتتوا في طول البلاد وعرضها يحملون في طيات انفسهم عقيدتهم المعزّية ويبثونها بين الامم التي نزلوا اراضيها . هذه على ما ارى هي العوامل التي اوجبت ظهور الاعتقاد بالمسيح عند اليهود وقد اسهبت في بيانها لاعتقادي بأنها هي نفسها اوجبت انتشار هذا الفكر بين العرب المسلمين ايضاً وبين من اخذ عنهم الدين الحنيف وعلى الاخص بين الفرس

---

(١) « هكذا قال الرب لمسيحه كورش ... » (اشع ٤٥ : ١) « انتم شهودي وعبدي الذي اخترته » (اشع ٤٣ : ١٠) (٢) « انا اقيمه للعدل وسأقوم جميع طرقه » (اشع ٤٥ : ١٣)

(٣) غلبت الصفة القومية على سائر صفات « المسيح » في كتاب دانيال وذلك في ايام المكابيين في حين ان اشعيا وارميا وعاموس كانوا في بعض الاحيان يجردونه عن هذه الصفة ويصورونه بصورة « مخلص » عام تشمل رسالته الادبية جميع شعوب الارض (international)

لقد اجمع (*) مؤرخو الاسلام (١) ومن كتب في الفرق الدينية (٢) على ان القول بالمهدي او الامام المحتجب ظهر في الاسلام بعد وفاة النبي وانتقل الى العرب خاصة والمسلمين عامة عن اليهود . على اني ارجح ان هذا الاعتقاد كان شائعاً في امم المدن العربية بين بعض الفرق الدينية كالحنفيين والكسائيين والصابئيين قبل الاسلام وان النبي العربي كان يعلم ذلك قبل ان يظهر دعوته وانما اليهود والنصارى المتهودون (٣) نقلوا الى العرب بعض تفاصيل هذا الاعتقاد وبعض خرافات واحاديث خلقها جهلهم وتخيلاتهم المصابة بالحمى. وقد ذكر ابن خلدون بعض هذه الاحاديث في مقدمته فليراجعها هناك من اراد التوسع في هذا الموضوع .فمن ذكروا بين الذين ادخلوا على الاسلام هذا التعليم عبد الله بن سبا وعبد الله بن السوداء وغيرهما وكلهم كانوا من اليهود الذين « اظهروا الاسلام ليفسدوا — كما يقول صاحب « الفرق بين الفرق »(٤) — على المسلمين دينهم بتأويلاتهم في علي وأولاده » الذي غالوا فيه حتى جعلوه إلاهاً وقالوا انه لم يقتل وانما قتل شيطان في صورة انسان (٥) وانه صعد الى السماء كما صعد اليها عيسى بن مريم ثم انه سينزل منها — القول في الرجعة — لينتقم من اعدائه و « يملك الارض بمذافيرها»(٦) وهذه الفرقة تزعم ان المهدي هو علي دون غيره . وقد تبعها في ذلك اكثر الروافض كالزيدية والامامية والكسائية والاسماعيلية وسائر الغلاة مع اختلاف بينهم في شخص المهدي واسمه او الامام المنتظر بين ان يكون عليًّا نفسه او احد ابنائه او احفاده على انهم قد اجمعوا على ان المهدي لا بدَّ ان يخرج من بيت علي او من بيت النبي وعترته وقد تسرب هذا الاعتقاد الذي كان في اول الامر محصوراً في شيعة علي الى اهل السنة والجماعة حتى اصبح عقيدة عندهم او كاد فلم يبق محدث الا تناوله وخاض فيه ووضع فيه من الاحاديث(٧) ما وافق عصره ودرجة ثقافته وشيعته الدينية او السياسية وصفاته الشخصية الى غير ذلك من المؤثرات الداخلية والخارجية . ونحن انما يهمنا من كل ذلك ان نعلم أن القول في المهدي لم ينتشر بين المسلمين الا بعد ان قتل علي بن ابي طالب ولان الذين ادخلوه كانوا من اليهود وان الغرض من مجيء المهدي — وهذا هو الاهم — كان في اول الامر سياسيًّا محضاً ولم يتحول

(*) قول الاستاذ هنا باجماع مؤرخي الاسلام ! ! باطل لا يستند الى دليل قوي ، وكم من رجل او رجلين فيما روى من الاحاديث عن ظهور المهدي (ولا تقول الامام المحتجب) لا تعد اجماعاً من مؤرخي الاسلام على هذا القول ، ونحن لا نقر الاستاذ على ما وصف به امة الاسلام في كلامه هذا من اختلاق الاحاديث والجهل والتخيل المحموم [محمود محمد شاكر]

(١) انظر على الاخص الفصلين الذين عقدهما ابن خلدون في مقدمته على « الفاطمي» وما ذهب اليه الناس فيه ثم على الملاحم وما جاء من أمم ما كتب في هذا الموضوع على الاطلاق (الفصلان ٥٣ و٥٤ من طبعة المطبعة البهية ص ٢٧١ — ٢٩٩) (٢) راجع كتاب « الفرق بين الفرق» لابي منصور البغدادي وكتابي ابن حزم والشهرستاني في الملل والنحل وغيرهم (٣) يظهر ان كلة نصارى الواردة في القرآن لم تكن تشمل جميع المسيحيين بل فرقة منهم عرفت قديماً بهذا الاسم (٤) ص ٢٢٥ (٥) وهذا ما ادعته بعض الفرق (Docètes) في عيسى المسيح (سورة ٤ آية ١٥٦) (٦) الفرق بين الفرق ص ٢٢٤ (٧) وقد نقد اكثرها ابن خلدون وغيره من رواة الحديث المحققين

الى غرض اجتماعي واخلاقي الاّ مع الزمن وبعد ان فشل اصحاب علي مرات عديدة يؤيد ذلك اكثر الاحاديث واقدمها وهي تصرح بأن « المهدي » سيظهر « لينتقم من اعداء علي وبيته ويملك الارض كلها » وانه متى تم مهمتُه هذه عاد الى حيث اتى. وهٰذا اجمعوا او كادوا يجمعون على ان رسالته هذه سوف لا تستغرق اكثر من «سبع او تسع سنوات » « ويكون في امتي المهدي ان قصر فسبع والاّ فتسع فتنعم امتي فيه نعمة لم ينعموا بمثلها قط تؤتي الارض اكلها ولا يدخر منه شيء والمال يومئذ كدرس فيقوم الرجل فيقول يا مهدي اعطني فيقول خذ » (١). وجاء في حديث آخر عن جابر ان النبي قال « يكون في آخر امتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعده عدّاً »(٢) وعن ابي سعيد الخُدْرِيّ « يخرج في آخر امتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الارض نباتها ويعطي المال صحاحاً وتكثر الماشية وتعظم الامة يعيش سبعاً او ثمانيا (حججاً) »(٣) الى غير من الاحاديث التي تنسب الى المهدي اغراضاً سياسية مادية وتحصر رسالته في امته فقط. الاّ انهُ لم تمضِ على ظهور هذا الاعتقاد مائة سنة او نحو ذلك حتى صاروا ينسبون اليهِ اغراضاً اجتماعية واخلاقية كقولهم بان المهدي المنتظر سيملأ متى ظهر « الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »(٤) ولعلهم انما ارادوا «بالعدل والقسط» الانتقام من اعداء علي وبيتهِ وردّ الحكم ومصادر الثروة والقوة اليهم فيكون حينئذٍ الغرض من مجيء المهدي سياسيًّا محضاً وهو ما ارجحهُ لاسيما وان اكثر شيعة علي والذين غالوا فيهِ وفي ابنائهِ كانوا في هذا الوقت من الفرس الذين لم يتشيعوا لعلي وابنائهِ في بادىء الامر الاّ لغاية سياسية معلومة ألا وهي استرداد ملكهم وما فقدت ايديهم من خيرات هذه الدنيا

على كل حال لا ريب في ان الغرض الاساسي من ظهور القول بالمهدي بين الشيعيين كان في اول الحركة سياسيًّا وعليهِ لا اظنني بعيداً عن الحقيقة اذا صرّحت بان الاحزاب السياسية الاخرى والقبائل العربية التي ظهر بينها القول بالمهدي او بما يرادفه هذا الاسم اخذت هذا الاعتقاد عن الشيعيين رأساً لا عن اليهود او عن المسيحيين واكبر دليل على ذلك في نظرنا هو ان هذه الاحزاب او القبائل حصرت الغرض من مجيء « المهدي » او الامام في امر واحد وهو اعادة الحكم واسبابهِ اليها اذا كانت اضاعته او اعطاؤها اياه اذا لم تكن بعد وصلت اليهِ. وكل ذلك ظاهر ان كان في خبر « السفياني » او « مهدي » بعض القبائل العربية الذين لم يقدّر لهم ان يلعبوا دوراً هامًّا في تاريخ العرب « كالقحطاني »(٥) في اليمن و« التميمي »(٦) عند المضرية و« الكلبي »(٧) عند بني كلب في اليمن وغيرهم ممن لم تبلغنا اخبارهم ولهذا نعرض عن ذكرهم مقتصرين على خبر « السفياني » مهدي بني سفيان

(١) و (٢) و (٣) مقدمة ابن خلدون ص ٧٥ ومسند احمد ٣:٣٦ (٤) ابن خلدون ص ٢٧٤
(٥) و(٦) و(٧) راجع عنهم تأليف van Vloten تحت عنوان Recherches sur la domination arabe, le chiitisme et les croyances messianiques sous le Khalifat des Omayyades p. 61 Amsterdam 1894

جاء في كتاب الاغاني (١٦ : ٨٨) ان اول من وضع خبر السفياني وكبّره « هو خالد ابن يزيد بن معاوية وانهُ اراد من ذلك ان يكون للناس فيه طمع حين غلبهُ مروان بن الحكم على الملك وتزوج امهُ ام هاشم » وهذا الحديث مرفوع الى مصعب عم الزبير الا ان صاحب الاغاني او من نقل عنهُ بعد هذا الخبر وهماً من مصعب لان خبر « السفياني قد رواه غير واحد وتتابعت فيهِ رواية الخاصة والعامة وذكر خبر امره ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين وغيره من اهل البيت » على اني ارجح اليوم [1] بان الواهم هو صاحب الاغاني لانهُ خلط على ما يظهر لي بين كلام جعفر المذكور وغيره من اهل البيت في المهدي المنتظر على العموم وبين الكلام عن « السفياني » بطل بني امية او بالاحرى بني سفيان وشتان ما بين هذا وذاك من الفرق فقد رأينا ان دعوة المهدي اصبحت مع الزمن عامّة تشمل جميع المسلمين وان الغرض من مجيئهِ اصبح اجتماعيًّا اخلاقيًّا اكثر منهُ سياسيًّا في حين ان رسالة السفياني كانت دائماً سياسية ومحصورة في بني سفيان ثم في بني امية بعد ان سقطت دولتهم وانتقل الملك الى بني العباس ولم يكن غرضها الا اعادة الملك الى بني امية حتى اذا ردّ اليهم انتهت دعوة « السفياني » ولم تعد حاجة اليهِ ولهذا السبب لم يشع خبره والاعتقاد برسالته الا بين شيعتهِ وحلفهم او كلهم من عرب سوريا وفلسطين وبعض الناقمين على بني العباس من العرب وغيرهم ولهذا ايضاً قالوا ان مدة بقاء السفياني في اصحابه لا تزيد على تسعة اشهر او ما يقرب من ذلك كما يؤخذ من الحديث الآتي : « قال ابو جعفر محمد بن علي كم تعدّون بقاء السفياني فيكم قلت حمل امرأة — تسعة اشهر — قال ما اعلمكم يا اهل الكوفة » [2] وجاء في حديث آخر ان منصور بن الاسود قال : أتيت جابر الجعفي أنا والاسود اخي فقلنا لهُ إنا قوم نضرب في هذه التجارات وقد بلغنا ان الرايات قد قطع بها الفرات فماذا تشير علينا وماذا تأمرنا ؟ قال اذهبوا حيث شئتم من ارض الله تعالى حتى اذا خرج السفياني فانطلوا عودكم على بدئكم » [3]

ومما يرجح القول بان خالد بن يزيد بن معاوية هو الذي وضع خبر السفياني هو ان خالداً كان يطمع في الملك لانهُ كان اكبر ابناء يزيد فكان يجب ان يرثهُ طبقاً للنظام الذي وضعهُ معاوية جرياً على سنة البزنطيين الذين كان يتأثرهم في ادارة البلاد الا ان خالداً لم يرث اباه كما هو معلوم بل ورثهُ مروان بن الحكم واولاده من بعده وبذلك انتقل الملك الى المروانيين وهذا ما لم يكن ليرضى عنهُ بنو سفيان او بعضهم . ومن ذلك ايضاً ان خالداً كان من اشهر علماء عصره بين العرب وكان متفرغاً « لطلب الحديث وقراءة الكتب وعمل الكيمياء » [4] ولهذا لم يكن ليخفى عنهُ امر المهدي وخطورة هذا الفكر وسعي اهل الشيعة في حصره في بيت علي واستغلاله في مصلحتهم فهل يلام خالد او يستغرب منهُ اذا هو اخذ هذا الاعتقاد عن اعدائهِ

(١) خلافاً لما قلته في مقالتي « حين العرب الى بني امية » فليصلح هناك (٢) كتاب الاغاني ١٦ : ٨٨
(٣) الاغاني ١٦ : ٨٨ (٤) الاغاني ١٦ : ٩٠

واستعمله لمصلحته ومصلحة بيته؟ ومهما يكن من الامر فلا ريب في ان القول «بالسفياني» ظهر في الاسلام بعد ان انتشر الاعتقاد بالمهدي عن العموم وبعد ان اضاع بنو سفيان الخلافة ولا ريب كذلك في ان سوريا كانت منشأ هذا الاعتقاد وساحة الحروب التي نشأت عنهُ وان كلمة «السفياني» اصبحت شعار عرب سوريا ينادون بهِ كلما ثاروا على اصحاب السلطة الجديدة ويؤلبون تحته غير الراضين عنها وعن نظامها وادارتها. وقد عرف بنو العباس ذلك منهم فكانوا يخشونهم ويكرهون سماع كلمة «السفياني» كما يُستفاد من الحديث الآتي. ذكر الطبري: «ان رجلاً تمرَّض للمأمون بالشام مراراً فقال له يا امير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم اهل خراسان فقال (المأمون) اكثرت عليَّ يا اهل الشام. والله ما ازلت قيساً[1] عن ظهور الخيل الاَّ وانا أرى انهُ لم يبق في بيت مالي درهم واحد واما اليمن فوالله ما احببتها ولا احبتني قط واما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من اشياعه[2] اعزب فعل الله بك!»

وقد حاول عرب سوريا — لجنوبية والشمالية — مراراً ان يردوا الملك الى بني امية فلم يوفقوا للاسباب التي بيناها في مقالتنا السابقة وكم من مرة شقوا عصا الطاعة على بني العباس باسم السفياني فلم يفلحوا على ان ذلك لم يكن ليقعد بهم عن القيام ضد الدولة المبغوضة عندهم كلما سنحت لهم فرصة

ذكر أصحاب التاريخ ان اول ثورة ضد حكم بني العباس ذكر فيها اسم السفياني كانت ثورة علي بن عبدالله بن يزيد بن معاوية الملقب بابي العميطر في الشام وذلك في ذي الحجة من سنة ١٩٥هـ — ٨١٠م والذي يؤخذ من كلام الطبري[3] وابن الاثير[4] ان ابا العميطر «دعا لنفسه بالخلافة مدعياً انه السفياني المنتظر وقوي على سليمان بن المنصور (بن أبي جعفر) عامل دمشق فاخرجه عنها بعد حصره اياه واعانه على ذلك الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية وكان أكثر أصحابه من كلب» ولولا اختلافه[5] مع محمد بن صالح بن يهيس الكلابي الذي كان دعاه الى طاعته فلم يجبه الى ذلك ولولا انقسام بني أمية الى حزبين سياسيين مؤازرين على الملك لكان للسفياني شأن آخر في سوريا

ثم ظهرت حركة المبرقع الفلسطيني «السفياني» في فلسطين سنة ٢٢٧هـ/٨٤١م و «السفياني» الموسوس في الشام سنة ٢٩٤هـ — ٩٠٦م وهو «سفياني» آخر في طرابلس (ابن الاثير ٧: آخر الصفحة) وغيرهم ممن ذكرنا اخبارهم في مقالتنا السابقة فلتراجع هناك. ولم ينته أمر السفياني الاَّ بعد ان سقطت دولة بني العباس في أيدي السلاجقة ثم المغول حين لم يبق داعٍ الى النزاع بين الاحزاب العربية السياسية القديمة وحين عمَّ الاعتقاد بوجوب ظهور مهدي عام «يملأ الارض قسطاً وعدلاً» ويحيي الامة العربية جميعها ويرد اليها عزها السالف ويوحد كلمتها ...

فهل يكون ذلك يا ترى ومتى؟ وهل يكون عن يد «السفياني» أم عن يد شخص آخر؟

---

(١) شيعة بني امية وجندهم المحرب (٢) ١٠: ٢٩٦ (٣) ١٠: ١٥٥ (٤) ٦: ٨٩ — ٩٠ من الطبعة المصرية (٥) «ولما عرض ابن يهيس جعم رؤساء بني نمير فقال لهم ترون ما اصابني من علي هذه فارفقوا ببني سفيان وعليكم بمسلمة بن يعقوب ... ابن مسلمة بن عبد الملك فانه ركيك وهو ابن الخنكر واعلموه انكم لا تبغون بني ابي سفيان وبايعوه بالخلافة وكيدوا به «السفياني»